الأصالة والمعاصرة في أدب التِّلِّيسي بين النظرية والتطبيق

د. أحمد بن ماطر أحمد يتيمي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد اهتم التليسي بقضية الأصالة والمعاصرة، وسعى لربط الأجيال اللاحقة بالسابقة عن طريق اكتشاف المعاصرة في التراث العربي، ولم يكن التليسي منظِّرا لهذه القضية فحسب؛ فقد ظهرت جلية في شعره واختياره الذي سعى فيه لربط الحاضر بالماضي، وإحياء التراث في نفوس أبناء العربية بالعودة إلى ينبوعه الأصيل، والكشف عن جوانب المعاصرة فيه.

وقد انطلق البحث من عدة تساؤلات:

ما رؤية التليسي لقضية الأصالة والمعاصرة؟ وكيف يمكن تحقيقها ورصدها في الأدب العربي؟

ما مدى التوافق والاختلاف بين رؤيته وإبداعه؟ وما مظاهر تحقق هذه القضية في أدبه؟

ومن هنا فقد رأى الباحث أن يشتمل البحث على مقدمة و تمهيد ومبحثين وخاتمة، على النحو الآتي:

المقدمة: وفيها بيان أهمية الموضوع، وخطته، ومنهجه.

التمهيد: وفيه عرض موجز لمفهوم الأصالة والمعاصرة، وتعريف موجز بالأديب خليفة التِّلِّيسي.

المبحث الأول: (رؤية التليسي للأصالة والمعاصرة)، وقد عرضت فيه آراء التليسي حول مفهوم الأصالة والمعاصرة، وطرق تحقيقها في التراث العربي والشعر المعاصر، وناقشت تلك الآراء.

المبحث الثاني: (الأصالة والمعاصرة في أدب التليسي)، وبيَّنت فيه أثر الأصالة والمعاصرة في نتاج التليسي الشعري، ومدى تحققها في شعره؛ وذلك برصد جوانب الأصالة والمعاصرة في شعره وتحليلها، وبيان مظاهرها.

الخاتمة: وفيها أهمّ النتائج التي توصّل إليها البحث.

ثم ذيَّلت البحث بالهوامش والمراجع التي أفدت منها.

وقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج الوصفي التحليلي في عرض الآراء ومناقشتها، وتحليل النصوص، وفق المتبع في الدراسات العلمية.

التمهيد

أولاً: مفهوم الأصالة والمعاصرة:

عندما نتحدث عن الأصالة والمعاصرة في الأدب العربي فنحن نرتكز على ركنين رئيسين من مكونات الأدب العربي؛ فكل أدب مهما كان عصره لابد أن يتسم بالأصالة والمعاصرة، فالأدب العربي فيه تعبير عن الذات وما يكتنفها من مشاعر، وفيه مراعاة لروح العصر، ومواكبة لتطور الأجيال، ومن هنا يظهر أن الأدب العربي على مر عصوره يحقق الأصالة التي تعبر عن روح الأدب العربي وشخصيته، ويحقق المعاصرة التي تقبل الانسجام مع متغيرات الزمن وتطورات الحركة الأدبية.

والأدب العربي بفنونه المختلفة يحمل عدداً من سمات الأصالة، فهو أدب متطور لا يقف عند حدٍّ معين، ولا تعيقه حركات التجديد والتطوير، وهو مع ذلك محافظ على هويته وشخصيته، غير متأثر بحركات التجديد، فهو أصيل في جوهره، رافض للتبعية التي تتماهى فيها ملامحه وتندثر فيها معالمه(١).

إن الأصالة في الأدب تكشف عن جودته وتميزه، والسمات المكونة له، وهي بذلك توجب على الأديب أن ينطلق من العمق التراثي الذي يمثل الأدب في عصوره المتقدمة، ويعبر عن روحه وهويته، إضافة إلى التعبير عن ذات الأديب وتجاربه الشخصية، أو مشكلات عصره وبيئته.

وإذا نظرنا إلى الأصالة في مفهومها يظهر لنا جانبا المحافظة والتقليد، إلا أنها في حقيقتها لا تمثل المحافظة أو التقليد إلا في بعض جوانبها؛ إذ إن الأصالة تحمل

بُعداً آخر يتمثل في حضور روح الأدب العربي وشخصيته وما يحمله من سماتي تصف بها الأدب العربي على مر العصور، بل إن الأصالة تعني حفاظ الأدب العربي على سماته ومكوناته الفنية، وقبوله للتطور والتجديد دون تبعية أو ضياع لروح الأدب وهويته(٢).

أما المعاصرة فتعني النظر إلى متغيرات العصر والبيئة التي يعيشها الأديب، والتكيف معها، والسعي نحو تطوير النص الأدبي بما يتسق مع روح عصره، وهو مع ذلك يحافظ على جودته، وهويته الخاصة التي عُرف بها الأدب العربي.

وإذا كانت المعاصرة تسعى نحو التجديد فإنها لا تطلب التجديد الذي هو خلق جديد من العدم، وإنما تطلب من الأديب الوقوف عند ما هو شائع ومألوف، ومحاولة إيجاد إضافة، وتطوير جوانب معينة في سبيل بث الحياة فيما هو راكد ومألوف، وإثراء النتاج الأدبي لاحقاً بعد الاهتمام بالجزئيات التي يمكنها إضافة جديد بعد تضافرها وتكاملها(٣).

فالمعاصرة لا تعني رفض القديم والتمرد عليه، بل هي محاولة تجديدية، تتوافق مع روح العصر، وتسعى للتطور والتجديد، والنظر إلى التراث من بُعد يتح لها الاستناد إلى أساس متين، ويفتح لها آفاقاً نحو الإبداع والانطلاق.

إن السعي لتحقيق الأصالة والمعاصرة في الأدب وجعلهما من سمات الأدب الجيد لا يعني بالضرورة طغيان أحدهما على الآخر؛ ولذلك فقد أشار الدكتور أحمد هيكل إلى أن طغيان الأصالة سيبقي الأدب في دائرة المحافظة أو التقليد، وإذا طغت المعاصرة والتجديد فإنها ستسير بالأدب إلى التبعية والمحاكاة التي من شأنها أن تخفي هوية الأدب العربي، وتلبسه ثوباً لا يليق به(٤).

ومن هنا يظهر أن الأصالة والمعاصرة تشكّل محوراً تكاملياً، يسند أحدهما الآخر، وهما بذلك أصبحا معياراً مهماً لدى بعض النقاد في جودة الشعر، وقبوله، وتمثيله للشعر العربي الأصيل، كما هو الحال لدى خليفة التليسي.

ثانياً: الأديب خليفة التليسي:

خليفة محمد التليسي، أديب ومؤرخ ليبي، ولد في العاصمة الليبية طرابلس عام ١٩٣٠م، وتلقى تعليمه فيها، وكان ملما باللغة الإيطالية، فاتجه إلى إيطاليا عام ١٩٦٠م في بعثة أدبية من منظمة اليونسكو؛ للتعرف على الأدب الإيطالي وكتّابه المعاصرين، وقد أدى ذلك إلى جذب اهتمام التليسي بالأدب الإيطالي، وترجم عددا من الكتب الأدبية والتاريخية إلى اللغة العربية.

وقد تدرج التليسي في السلك الوظيفي، وشغل عدداً من المناصب؛ حيث عمل في مجال التعليم، ثم انتقل للعمل في مجلس النواب، وفي عام ١٩٦٢م عُيِّن أميناً عاماً للمجلس، ثم أصبح التليسي وزيراً للإعلام والثقافة في عام ١٩٦٤م، واستمر في منصبه حتى عام ١٩٦٧م، عُيِّن بعدها سفيراً لليبيا لدى المغرب، قبل أن يعود إلى ليبيا في عام ١٩٧٠م وينصرف لأعماله ونشاطه الثقافي.

وبعد عودته إلى ليبيا تولى التليسي رئاسة مجلس إدارة الدار العربية للكتاب، وانتُخب رئيساً لاتحاد الأدباء والكتّاب الليبين، وأسهم في تأسيس اللجنة العليا لرعاية الفنون والآداب، وتأسيس جمعية الفكر، إضافة إلى إسهامه في تأسيس مجلتي الرواد والمرأة(٥).

ومن هنا يظهر أن التليسي قد ارتبط بالعمل السياسي والأدبي، مما أثر في شخصيته، وجعله يستثمر أدبه في التغني بوطنه، وتحفيز أبناء وطنه لإعماره، والاهتمام بتاريخه وتراثه العربي.

وكان ارتباطه المباشر بالمؤسسات العلمية والثقافية قد وضعه في المشهد الثقافي والأدبي، ورأى إلى أي مدى قد تأثر أدباء ليبيا والعرب بالمدارس الغربية، وتماهت شخصياتهم مع الآداب الأخرى؛ مما دعاه لأن ينادي بضرورة العودة إلى التراث العربي، وسبر أغواره، والاستناد عليه في حركة التجديد، وبهذا أخذ يدعو إلى تحقيق الأصالة والمعاصرة في النتاج الأدبي للأدباء المعاصرين، إضافة إلى قراءة التراث العربي واكتشاف جوانب المعاصرة فيه؛ لبيان قدرة الأدب العربي على التكيف مع المتغيرات في كل عصوره، وتمكنه من استيعاب المدارس والاتجاهات القديمة والحديثة.

عُرف التليسي بثرائه المعرفي وموسوعيته، وعمق طرحه، واعتزازه بثقافته العربية، وسعيه إلى إعادة الأدب العربي إلى مجده وقوته، وعكف على التصنيف والترجمة وإثراء المكتبة العربية بكل ما هو جديد، وبكل ما من شأنه إعادة توهج الأدب العربي، ورقي الثقافة العربية المعاصرة.

وقد بلغ نتاج التليسي ما يربو عن أربعين كتاباً، بين تأليف وترجمة ونتاج أدبي، في التاريخ والأدب، وإذا استعرضنا هذا النتاج الأدبي وجدنا أنفسنا أمام

مسيرة زاخرة بالمؤلفات التي كان لها أثر في الحراك الثقافي والأدبي الذي شهدته الساحة الثقافية الليبية.

ولعل من أبرز مؤلفاته الأدبية والنقدية: الشابي وجبران، رفيق شاعر الوطن، كراسات أدبية، من روائع الشعر العربي (مختارات)، قصيدة البيت الواحد (مختارات)، كما أصدر التليسي دواوين شعرية وهي: وقفٌ عليها الحب، وقدر المواهب، والمجانين، كما أسهم التليسي في ترجمة عدد من الأعمال الأدبية والتاريخية مثل: لوركا، وهكذا غنى طاغور، ومسرحية الفنان والتمثال، وقصص إيطالية، وغيرها.

وبناءً على هذه المسيرة الحافلة بالمؤلفات والإنجازات، فقد نال التليسي عدداً من الجوائز والأوسمة، كان من أهمها حصوله على الدكتوراه الفخرية من المعهد الشرقي بجامعة نابولي في إيطاليا، ومُنح الوسام الثقافي التونسي، ونال الجائزة الأدبية الدولية للبحر المتوسط.

وقد توفي الأديب والمؤرخ خليفة التليسي في طرابلس عام ٢٠١٠م بعد ثمانية عقود قضاها في كتابة سيرة أدبية وثقافية عطرة، على صعيد أعماله وإنجازاته، وعلى صعيد التأليف والترجمة، وأصبح بذلك رمزاً من رموز الثقافة العربية عامة، والثقافة الليبية خاصة، وأثرى المكتبة العربية بمؤلفاته وإبداعه وترجماته، وبالحراك الثقافي الذي دار حول آرائه ومصنفاته.

المبحث الأول: رؤية التليسي للأصالة والمعاصرة:

يُعد التليسي من الأدباء والنقاد الذين ركزوا على قضية الأصالة والمعاصرة في طرحهم النقدي، لاسيما في مقدمة مختاراته (من روائع الشعر العربي) و (قصيدة البيت الواحد)؛ حيث بيّن التليسي أهمية اكتشاف الأصالة والمعاصرة في شعر القدماء، وكيف يمكن للشعراء المعاصرين أن يحققوها في شعرهم.

وقد صرّح التليسي في مقدمة مختاراته أن الأصالة والمعاصرة من أبرز الروابط التي تربط الجيل الحاضر بالماضي، يقول في ذلك:"ونختار لأننا نسعى على ربط الصلة بين الأجيال السابقة والأجيال اللاحقة باكتشاف المعاصرة في تراثنا القديم"(٦).

ثم انطلق التليسي في تفنيد هذه القضية، وسعى إلى محاولة إيجاد روابط وصلات بين الأدب القديم وما يدونه الشعراء المعاصرون، ويقرِّب المسافات بين اللاحق والسابق؛ في محاولة لرفع مستوى الذوق الأدبي، وهو ما يمهد بعد ذلك لرفع المستوى الشعري، والاستناد إلى أساس متين من التراث في عملية التطوير والتجديد.

وكان التليسي يرى أن انخفاض مستوى الشعر العربي يعود في الأساس إلى غياب الشخصية العربية نتيجة ما حصل في عصور الانحطاط، واستدعى ذلك ضرورة إعادة الثقة بالأدب العربي، وإبراز الشخصية العربية الأصيلة لدى الجيل المعاصر؛ ليتأثروا بها، ويعودوا بالشعر العربي إلى عصور ازدهاره، خاصة وأن الشعر المعاصر بالرغم مما تعرض له من ضعف إلا أن الذاتية مازالت حاضرة، ولم يتخل الشعراء عن التعبير عما في أنفسهم رغم ما يواجهه الشعراء من ضغوطات سياسية واجتماعية تربطهم بغيرهم(٧).

ولما كان الشعر ديوان العرب، ومحل فخرهم وعزهم، وحافظ أيامهم وذكرياتهم؛ أصبح لزاماً علينا أن نعود إلى هذا الإرث العظيم، ونسعى جاهدين إلى إعادة قراءته ونشره بصورة تحقق المعاصرة فيه، وتربط الجيل المعاصر بتراثه، ليجدوا فيه مرشداً لتكوين شخصياتهم، إبراز هويتهم العربية الأصيلة، والسير قُدماً نحو تطويره؛ ليواكب روح العصر، ويتكيف مع ما فيها من متغيرات.

إن الأصالة والمعاصرة بهذا المفهوم دعت التليسي إلى التأمل في الأدب العربي قديمه وحديثه، وسد الفجوات التي يمكن أن تتسبب في إهمال التراث لقدمه وبُعده عن روح العصر، أو تغييب الشخصية العربية وإلباسها ثوب الآداب الغربية التي تأثروا بها بعيداً عن تراثهم وانتمائهم.

ومن هنا فقد كانت دعوة التليسي في تنظيره لتحقيق الأصالة والمعاصرة يتمحور في ركنين رئيسيين : في إعادة قراءة التراث العربي قراءة تكشف عن مظاهر المعاصرة فيه، وفي قدرة الشعراء المعاصرين على تحقيق الأصالة والمعاصرة في نتاجهم الأدبي؛ لينطلق الشعراء من إرث أصيل، محققين بذلك المعاصرة التي تواكب روح عصرهم، دون غياب للهوية العربية أو تماهيها مع الآداب الأخرى.

أولا: الأصالة والمعاصرة في التراث العربي:

لقد ذهب التليسي في حديثه عن الأصالة والمعاصرة إلى ضرورة العودة إلى التراث العربي، وسبر أغواره، والوقوف

على نماذجه الرفيعة، ليس لمجرد العودة إلى المنهل العذب فحسب، بل لمحاولة قراءة التراث العربي قراءة معاصرة، تتفق وروح العصر، وتلبي احتياج الشاعر المعاصر في معرفة طريق الأصالة والمعاصرة، وتجعله يتمثل بالشعر العربي ليفتح له أفقاً رحباً، ويفيد من تجارب الأوائل في تحقيق المعاصرة.

إن العودة إلى التراث واستلهامه وإعادة عرضه ليبعث في نفس القارئ حباً له؛ لأنه لامس موقعاً حسناً في نفسه، وأثار فيه اهتماماً خاصاً، فتتحقق المعاصرة المتمثلة في الزوايا المضيئة الخالدة من نفس الإنسان، وفي مواقفه مع المشكلات الإنسانية، وفي تعبيره عن الشخصية العربية بمختلف جوانبها(٨).

كما يجد شعراء العصر الحديث في تراثهم ما يواكب عصرهم، ويتسق مع سرعة تتابع الأحداث، وتوالي المتغيرات؛ وذلك باعتماده في بعض جوانبه على اللمحة الخاطفة، والومضة السريعة، التي تأتي مركزة، حاملة بين طياتها تفاصيل متعددة يمكن للمتلقي إدراكها وكشف مضمونها، ومن ذلك ما نجده في شعر المعري من معاصرة تتمثل في تأملاته ولمحاته الشعرية العميقة، وكذلك تظهر المعاصرة في شعر المتنبي في تجربته ومعاناته التي تمثل حال ضياع المثقف العربي وقهره، وتمرده على السلطة، وكبريائه الذي يرفض العبودية والخضوع(٩).

وإذا نظرنا إلى أدبنا العربي -قديمه وحديثه- ظهرت لنا قواسم مشتركة في بنائه وتركيبه وصوره وإيقاعه، كل ذلك يمكن أن يكون تأثراً جلياً، وهو في الوقت ذاته يمكن أن يكون صورة من صور المعاصرة التي تحققت لدى هؤلاء الشعراء، كما أن تأثر بعض الشعراء في بناء قصائدهم وفي تصويرهم يمكن أن يكون استلهاماً لنماذج أخرى من الأدب الغربي.

ويرى التليسي أن مصاحبة التراث، والتعمق في قراءته وتحليله، توصلنا إلى نتيجة ظاهرة، وهي أن الشاعر العربي في مختلف العصور كان متمثلاً بوجدانه ووجدان أمته، فكانت الذاتية بارزه في شعره، وهو مع ذلك لم يكن ينظر إلى مجتمعه من برج عاجي، أو يستقل بذاته بمنأى عن قومه وأمته، وهذا ما يتيح للشعراء المعاصرين أن يسيروا فيه على نهج أسلافهم في اعتزازهم بأقوامهم، وانتمائهم إلى مجتمعاتهم دون أن يؤثر في شخصيته، أو يؤثر في متابعة عصره(١٠).

وقد سعى التليسي إلى إثبات إمكانية قراءة التراث الشعري قراءة جديدة تربط الحاضر بالماضي، وتقديمه إلى الشباب بشكل يقبله الذوق المعاصر، فنشر كتابه (قصيدة البيت الواحد) الذي حاول من خلاله الرد على من اتهم الأدب العربي بالتركيز والتكثيف وتقييد التجربة، أو عاب على الأدب العربي الإسهاب والإفاضة وترك الإلماعة الخاطفة، فما ذهب إليه الفريقان لا يعدو أن يكون اتهاماً قاصراً لم يستوعب حقيقة الشعر العربي، ولم يدرس اتجاهاته وخصائصه، بل جاء مهاجماً من جوانب لم تتسق مع اتجاهات أصحابها، وإلا فالحق أن الشعر العربي على مدى قرون مضت قد استوعب كافة الأساليب، وتعددت مدارسه واتجاهاته، وقد أتاح للشعراء أن يسيروا به حسب رغباتهم الشعرية، ولم يفرض على الشعراء طريقاً محدداً ليسيروا فيه، ومع ذلك فقد بقي محتفظاً بشخصيته وهويته التي لا يحق لأحد أن ينازعه فيها، أو يطمس بعض ملامحه بحجة التجديد أو مواكبة العصر(١١).

وما نجده من أحكام نقدية في مراحلها الأولى، فهي أحكام جاءت مناسبة لطبيعة تلك المرحلة(١٢)، ثم أخذت منحى جديداً يعكس صورة أخرى لمرحلة متطورة متأثرة بمدارس متعددة، وثقافات مختلفة، تناولت النص الشعري من زوايا تختلف عن تلك التي كان ينظر مها المتقدمون، فأصبحت مكملة لبعضها، ومنتجة لمعرفة واسعة شاملة، دون هدم للسابق أو إنكاره.

ومن هذا المنطلق جاءت فكرة (قصيدة البيت الواحد) محاولة كشف القصيدة في البيت الواحد، ذلك " البيت الفني الذي يتضمن جوهراً شعرياً سواء تمثل في صورة فنية رائعة أو بيت شعري يحمل ذات الشاعر ومعاناته"(١٣)، وهو البيت الذي يمثل الومضة الخاطفة المكثفة في القصيدة ويكون قائماً بذاته، مكتفياً عما سواه.

والتليسي يفرق بينه وبين (بيت القصيدة) الذي يحمل بين طياته حكمة أو مثلاً سائراً حتى أصبح بيتاً مشهوراً تدور القصيدة حوله، وجعل (قصيدة البيت الواحد) في منزلة أعلى؛ حيث استقل هذا البيت ممثلاً قصيدة شعرية تعبر عن اللحظة الشعرية، ومن أمثلة ذلك لديه قول المتنبي(١٤):

تَمَلُّ الحُصونُ الشُّمُّ طولَ نزالنا
فتُلقي إلينا أهلَها وتَزولُ

وقوله(١٥):

وكمْ مِن جبالٍ جُبتُ تشهدُ أنَّني

الجبالُ وبحرٍ شاهدٍ أنّني البحرُ

وهنا تظهر استقلالية هذين البيتين؛ فكل بيت منهما قائم بذاته، يحمل معه صوراً مكتملة، ووصفاً يستوعب ما قد تشتمل عليه قصائد طويلة.

كما أن (قصيدة البيت الواحد) بمفهومها هذا تُعد قراءة معاكسة لدعوى الوحدة العضوية، التي تجعل من القصيدة هيكلاً مترابطاً متصلاً؛ فجاءت قصيدة البيت الواحد داعية إلى الاستقلالية والاكتفاء عن بقية أبيات القصيدة، وبهذا فإننا نعود إلى تراثنا العربي، ونتفهّم خصوصية المراحل الأولى التي مر بها، وأنه كان يناسب تلك المراحل تماماً كما يناسب المرحلة الحديثة، فهو أدب متطور متجدد يرفض الجمود، وأن قراءة التراث قراءة تكشف لنا جانب المعاصرة تبعث الأمل في عودة الشباب إلى تراثهم، والأخذ من معينه الصافي، وتعزز انتماءهم العربي، وتكوّن شخصياتهم، لتصبح لبنة يرقى بها الشعر العربي، ويواصل صعوده نحو أمجاده.

وتأتي تنمية الذوق الأدبي لدى الأجيال المعاصرة ضرورة ملحة بعد أن كادت الأذواق تنعدم في ظل الانفتاح الكبير على الثقافات الأخرى، وغياب الثقافة العربية ولاسيما الأدبية عن بعض المجتمعات؛ الأمر الذي دعا بعض النقاد والأدباء إلى تصنيف المختارات الشعرية، وتقديم النماذج العليا إلى الأجيال المعاصرة، في محاولة لربطهم بتراثهم الأصيل.

وكان التليسي من أولئك الذين حرصوا على تقديم النماذج العليا من الشعر العربي في مختاراته (من روائع الشعر العربي) و(قصيدة البيت الواحد)، وصنّفها بقراءة جديدة حاول فيها ربط الجيل الحاضر بالماضي، فابتدأ بعرض قصائد الشعراء من العصر الحديث وصولاً إلى العصر الجاهلي، في محاولة لكشف التناسب بين الشعر العربي في مراحله المختلفة.

وقد أشار التليسي إلى أهمية تنمية الذوق الأدبي لدى الأجيال المعاصرة، مشيراً إلى عدد من العوامل التي أسهمت في تراجع الذوق العام، ومن ذلك جناية النماذج المدرسية التي تُقدم للطلاب في مدارسهم، ولا تسهم في جذب أبناء العرب إلى تراثهم؛ حيث تأتي تلك النماذج ثابتة مستقرة لا تتغير ولا تتطور، بعيدة عن اهتماماتهم، ومنفصلة عن الوجدان العربي(١٦)، في حين كان الأولى الاهتمام بهذه النماذج التي تُقدم للنش؛ فهي تقدم صورة مختصرة عن أدبنا العربي، وتؤثر في الصورة الذهنية التي يرسمها الطالب في ذهنه عن تراثه، وفي ظل هذه النماذج فإن الصورة ستكون مزيفة، لأنها لم تُوظف بالطريقة الصحيحة التي تستميل النش، وتسهم في تنمية الذوق الأدبي لديهم.

وبهذا يتضح أن التليسي قد جعل من قراءة التراث عاملاً رئيساً في اكتشاف المعاصرة في تراثنا الأدبي، وجعلها رابطاً يربط به بين الأجيال المعاصرة بالأجيال السابقة، من خلال عودتهم إلى التراث العربي، والسير على نهج القدماء في تحقيق الأصالة والمعاصرة.

ثانيا: الأصالة والمعاصرة في إبداع الشعراء المعاصرين:

إن الأصالة والمعاصرة في نظر التليسي يمكن رصدها في شعر المعاصرين، وتبرز بعض ملامحها لدى بعض الشعراء الذين اطلعوا على الأدب العربي في عصوره المختلفة، ولاحظوا كيف تمكن الشعراء المتقدمون من الحفاظ على أصالة أشعارهم وتحقيق المعاصرة؛ من خلال مواكبة متطلبات عصورهم، والتعبير عن مشكلاتهم ورغباتهم.

وكان التليسي يؤكد ضرورة تنمية الذوق الأدبي لدى الجيل المعاصر عامة، والشعراء منهم خاصة؛ وذلك من خلال ربطهم بالنماذج العليا من الشعر العربي، تلك النماذج التي كوّنت الشخصية الأدبية للمتقدمين من الشعراء، وبمقدورها تكوين الشخصية الأدبية الأصيلة لدى المعاصرين، والإسهام في إعادة صياغة وجدانهم، واستفزاز مكامن الإبداع لدى الشعراء لينطلقوا نحو التجديد وتحقيق المعاصرة، وإلا فإن الشاعر قد يقع في فخ الانفصال التام عن الأدب العربي، والاتجاه نحو آداب تتسم بخصائص أخرى لا علاقة لها بالأدب العربي الأصيل(١٧).

ويرى التليسي أن رصد جوانب الأصالة والمعاصرة في إبداع الشعراء المعاصرين متحقق بوجود بعض المظاهر؛ فالشاعر المعاصر يجد في التراث الأدبي مصدر استلهام وإيحاء، فيقوم بتوظيف ذلك الإرث على نحو صحيح في شعره، ويسعى للإفادة من تجارب الشعراء القدماء وتعميق تجاربه، فيكون بذلك مرتبطاً بأدبه العربي الذي سعى لتجديده وإعادة تشكيله وتلوينه بما يناسبه من روح العصر، وهو مع ذلك يرسم نهجه الخاص بعيداً عن التقليدية، وفي إطار يتح له الاستناد على أساس من التراث الأدبي، والانطلاق بعد ذلك نحو التطوير والتجديد(١٨).

إن الاتكاء على الإرث الأدبي في الإفادة من استلهامه وتوظيفه وتعميق التجارب السابقة لا يمثل التقليدية بمفهومها المعروف، بل يسهم في تشكيل الشخصية الأدبية لدى المعاصرين، ويعيد عرض الأفكار بصورة جديدة تواكب متغيرات العصر، وتتيح للشاعر بعد ذلك معرفة الجوانب التي يمكن من خلالها التجديد والتطوير، دون الانسلاخ من عباءة الأدب العربي.

وقد أبدى التليسي إعجابه ببعض الشعراء المعاصرين الذين تحققت لديهم الأصالة والمعاصرة، وانطلقوا نحو التجديد ببصيرة وذكاء، وإن ظهر في بعض كتاباتهم الجنوح نحو التجديد والثورة على بعض ما في القصيدة العربية من تقاليد متوارثة، إلا أن شعرهم يعكس صورة أخرى، صورة اطلعت على التراث الأدبي واستوعبته وتأثرت به، وتمكنت من تحقيق المعاصرة في أجمل صورها.

ونحن نجد أبا القاسم الشابي من أبرز الشعراء المعاصرين الذين أُعجب بهم التليسي، فاختار من شعره أربع قصائد ضمّنها مختاراته، وألّف كتابه (الشابي وجبران) واستعرض فيه أبرز ما ميّز الشابي على المستوى الفني والفكري، ومدى تأثره بالتراث الأدبي، وسعيه نحو التجديد.

وكانت إشادة التليسي بالشابي قد انطلقت من محاور متعددة، كان من أبرزها ظهور الأصالة والرصانة في أسلوبه، تلك الأصالة التي نأت به عن السطحية والابتذال الذي وقع فيه كثير من شعراء المدرسة الحديثة، فأسلوب الشابي نابع من استناده على إرث أسهم في تكوينه الأدبي، فإذا بدأ في النظم " تدفقت شاعريته في سماحة ويسر لا يشعران القارئ بأي مجهود إلا بمقدار ما يشعرك النهر المتدفق نحو البحار بقوة النبع الذي يصدر عنه"(١٩).

وكان الشابي قد تأثر بالتراث العربي، الذي دخل في تكوينه الوجداني والأدبي، حتى أسهم في صقل موهبته، وأضفى على شعره قوة وصفاءً، وأصبح منهلاً يروي تجربته الشعرية، حتى أنه في ثورته على القديم حفظ للأدب القديم مكانته، واحترم الدور الذي أداه في مراحله السابقة، ولكنه ذهب يدعو للتجديد وفق التجربة الحديثة، ويعبر عن تجربته المعاصرة المتسقة من روح العصر(٢٠).

إن هذه الأصالة تميّز الشاعر عن شعراء عصره، وتمكّنه من رسم نهجه الخاص الذي يتفرد به، وتؤهله لإنشاء مدرسة ذات أثر جلي في الشعر الحديث، وتضعه في مصاف الشعراء الكبار في الأدب العربي(٢١).

والأصالة ليست بمنأى عن الشعراء المعاصرين، فقد حضرت في أشعارهم -لاسيما شعراء الكلاسيكية-، في حين غابت المعاصرة عن بعضهم، وفي الجانب الآخر فقد برزت المعاصرة لدى بعض المعاصرين واختفت معالم الأصالة، والتوفيق بين الأصالة والمعاصرة مطلبٌ يضمن ارتباط الشعر الحديث بأصوله ويعبر عن عصره، ويعطي صورة مشرقة عن تطور الشعر العربي.

المبحث الثاني: الأصالة والمعاصرة في أدب التليسي:

لم يكن اهتمام التليسي بالأصالة المعاصرة في التنظير لها والدعوة إلى تحقيقها فحسب ، بل ظهر ذلك الاهتمام في شعره؛ حيث ارتبط شعره بالتراث الأدبي، واستمد منه القوة والرصانة، والدقة في التعبير، وجمال التصوير، وهو مع ذلك كان معبراً مع روح العصر الذي عاش فيه، وتمكن من مجاراة الشعراء القدماء الذين جمعوا بين الأصالة والمعاصرة في أشعارهم، فكان مثالاً يُحتذى به لدى الشعراء المعاصرين الذين ينشدون النهوض بالأدب العربي، وتعزيز صورته ومكانته بين الآداب الأخرى التي انبهر بها الجيل المعاصر.

وقد تشكلت الأصالة والمعاصرة في شعره من خلال استلهامه للتراث الأدبي والإسلامي، والتأثر باتجاهات الشعراء المتقدمين، والتعبير عن موضوعات عصره وبيئته التي نشأ فيها، وتأثره ببعض الاتجاهات الفنية الحديثة، ولعل الحديث عن مظاهر الأصالة والمعاصرة في شعره يكشف مدى تحققها، وكيف استطاع التليسي الجمع بينهما دون أن يكون مقلداً أو منفصلاً عن التراث.

أولاً: استلهام التراث:

يستقي الشعراء معارفهم وصورهم من مصادر متعددة، فيتكوَّن لديهم مخزون معرفي مبني على تراكم تلك المعارف نتيجة تجاربهم وخبراتهم وقراءاتهم السابقة، ثم يستحضر الشاعر ذلك المخزون ويوظفه حسب مايلائمه في النص، وهو بذلك يكتسب المعرفة ويستوعبها، ثم يقوم بتوظيفها حسب دلالاتها وإيحاءاتها ومناسبتها للمواقف، على أن يكون الشاعر ملماً بالأبعاد الموضوعية والدلالية لما

يستلهم من التراث(٢٢).

وكان استلهام التراث حاضراً في شعر التليسي؛ رغبة منه في إحياء التراث الأدبي وتقديم ذلك التراث بصورة حديثة تتناسب مع العصر الراهن، وتعزيز الشخصية العربية بإبراز نماذجها العليا وعرضها للمتلقي على نمط يحببها في نفوس الأجيال المعاصرة، كما أسهم استلهام التراث في إمداد التجربة الشعرية للتليسي بروافد متعددة، جعلتها أكثر عمقاً وقدره على استيعاب الرؤى والأفكار التي طرحها التليسي من خلال شعره.

وإذا نظرنا إلى شعر التليسي تبيّن لنا تأثره بالتراث وتوظيفه له في مواضع عدة، معتمداً في ذلك على عدد من المصادر التراثية، كالقرآن الكريم، والأدب العربي المتمثل بأشعار العرب وقصصهم، إضافة إلى استدعائه للشخصيات التاريخية المشهورة في الأدب العربي.

وقد اعتمد التليسي على المصدر الديني المتمثل بالقرآن الكريم -بألفاظه وتراكيبه وقصصه-، ومن ذلك قول التليسي في قصيدة (النخلة الكريمة)(٢٣):

وما هَزَزتُ بها حتَّى تُساقطَها
ولا مَددتُ يدي حتَّى أدانيها

فقد استلهم التليسي هذه الصورة من قولة تعالى:(وهُزِّي إليك بِجِذعِ النَّخلَةِ تُسَاقِط عليكِ رُطَباً جَنِياً) [مريم ٢٥]

وفي قصيدة أخرى عنوانها (يقولون ما لا يفعلون) يقول التليسي عن الشعراء(٢٤):

وَقدْ جاءت الآياتُ صدقاً بحَقِّنا
يَقولونَ ما لا يَفعلونَ من الأمرِ

وهو بذلك متأثر بقولة تعالى:(والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهمُ الغاوونَ، أَلَمْ تَرَ أنَّهم في كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وأنَّهم يَقُولونَ مَا لا يفعَلونَ).[الشعراء ٢٢٦]

وكان استهام التليسي من القران الكريم دليل استناده على التراث العربي والإسلامي في انتقاء بعض الألفاظ والتراكيب، وفي ذلك دلالة على أن اللغة العربية ليست مرتبطة بزمان معين، أو حدث محدد، وإنما بمقدورها استيعاب كافة المعاني والصور، والتعبير بذلك عما يدور في وجدانه، ويواكب به روح عصره.

كما استلهم التليسي عدداً من المواقف والصور من التراث الأدبي في شعر العرب وأخبارهم، وقد جاءت قصيدته (المجانين) بعدد من المواضع التي يظهر فيها استلهامه للتراث، عن طريق التناص مع تلك الأحداث، ومن ذلك قوله(٢٥):

وَكَمْ وَقَفْنا على رَسمٍ نُسائلُهُ
عَن الدِّيارِ التي آوَتْ مَطاياها
وَكَمْ مَنَحْنا جدارَ الدَّارِ من قُبَلٍ
كُرْمَى لساكنَةٍ في الدَّارِ نَهواها
... هل حيُّها جَادَهُ غَيثٌ وهلْ نَعُمَتْ
عندَ الرَّبيعِ بأحوالٍ رَجَوناها

وهنا يظهر التناص في توظيفه للوقوف على الأطلال، وتقبيل مجنون ليلى لدارها، مع قول المجنون(٢٦):

أَمُرُّ على الدِّيارِ ديارِ لَيلَى
أُقَبِّلُ ذا الجِدارَ وذا الجِدارا
وَمَا حُبُّ الدِّيارِ شَغَفنَ قَلبي
وَلكنْ حُبُّ مَن سَكَنَ الدِّيارا

ثم يأتي التناص تاريخي بحديثه عن قصة الحب بين ولاّدة بنت المستكفي والوزير ابن زيدون، وقصة الحب الشهيرة بين عنترة العبسي وابنة عمه عبلة، ثم يُعّرض ببيت عمر بن ابي ربيعة الذي يقول فيه(٢٧):

لَيتَ هنداً أَنْجَزَتنا مَا تَعِدْ
وَشَفَتْ أنفُسَنا ممَّا نَجِدْ

وقد كان استدعاء الشخصيات التراثية ناتج عن ارتباطها بموضوع القصيدة التي تتحدث عن الحب والوفاء؛ حيث كان اهتمام الشعراء المعاصرين باستدعاء الشخصيات مُنصبا على ارتباطها بقضايا معينة، أصبحت رموزا لتلك القضايا، وهنا يظهر مدى الارتباط بين موضوع قصيدة التليسي والشخصيات المستدعاة؛ فقد جاء هذا الاستدعاء ليمثل رافدا مهما لتأكيد الفكرة التي يسعى الشاعر لتثبيتها وتعزيزها(٢٨).

إن استلهام التراث عن طريق التناص مع بعض الأفكار والصور والتراكيب، أو توظيفها، أو استدعاء الشخيصات الأدبية والتاريخية تبرهن عن مدى اهتمام التليسي بتمثل التراث الأدبي، والاستناد عليه، والانطلاق من مرجعية أدبية أصيلة، تضمن له الانتماء إلى هويته وشخصيته العربية، وتدفعه نحو سماء التجديد.

ثانياً: الحفاظ على البناء العروضي:

لعل مما يميل بشعر التليسي نحو الأصالة اعتماده على القصيدة العمودية في بناء قصائده، وهو نمط كلاسيكي يسير فيه على نهج القدماء في قرض الشعر، ويعتمد على التقاليد الموروثة للقصيدة العربية، وفي ذلك دلالة على التزام الشاعر بالموروث الأدبي، وحفاظه على أصالة الفن؛ باتباعه النُّظم والقواعد للقصيدة الكلاسيكية، وما يواكبها من التزام

موسيقي بالبحور الخليلية، والتزام بوحدة القافية.

وإذا كان التليسي قد مال إلى القصيدة العمودية في معظم قصائده فإنه أيضاً لم يُنكر التجديد العروضي في شكل القصيدة، فقد نظم عدداً من القصائد في شعر التفعيلة، وإن كانت تلك القصائد تمثل النسبة الأدنى من بين قصائده بما لايزيد عن ٢,٥٪ من إجمالي قصائد الديوان، ومن ذلك قوله(٢٩):

لتَقبَلي تَحيَّتي الأخيرَةْ
يا حُلوَتي الأميرَةْ
لا تَسألي عَن سَبَبِ لموقفي
عَن حُجَّة مُقنعَة
عَن زَلَّة تُبَرِّرُ الوَداعَ
في بدايةِ المَسيرةْ
فَمَوقفي أسبَابُهُ بَسيطَةٌ يَسيرةْ
جَميلَةٌ أنت جَمالَ الرَّوعَة المُثيرةْ

وفي ذلك إشارة لقبوله للمذهب الجديد في بناء قصيدة مواكبة للتجديد، ولما تقتضيه روح العصر، مع ميله للقصيدة الكلاسيكية التي تمثل الأصالة للقصيدة العربية.

ولم تكن للتليسي تجربة لما استجد بعد الحداثة بما يسمى (قصيدة النثر)؛ وقد يعود ذلك إلى رؤية التليسي بأن قصيدة النثر تمثل انسلاخاً ظاهراً من عباءة القصيدة العربية بتخليها عن الوزن والقافية، وهي حينئذ تهدم أركان القصيدة العربية، وتبني حاضراً على أنقاض الماضي، وهو ما يخالف رؤية التليسي الشعرية التي تستند على التراث في انطلاقتها نحو التجديد، وهذا ما دعاه إلى غض الطرف عن هذا اللون الأدبي الذي حاول روّاده أن يلبسوه ثوب الشعر رغم افتقاده أهم أركان الشعر!

ثالثا: بروز الموضوعات الحديثة:

منذ ميلاد الشعر وهو المرآة التي تعكس صورة الحياة، وترصد أيام العرب ووقائعهم، واستمر على ذلك مواكباً لكل المتغيرات التي طرأت على حياة المجتمعات، وفي ظل الأحداث السياسة التي شهدها العصر الحديث، واستقلال الدول العربية، بدأ الانتماء إلى الوطن يشكل اتجاهاً موضوعياً لدى الشعراء، إلى جانب اهتمامهم بالقومية العربية.

وكان التليسي من الشعراء الذين تغنوا بالوطن، وذكروا أمجاده، وأبرزوا مآثره في قصائد تنبض بحب الوطن، وتكسوه حلل الجمال والبهاء، وهو بذلك يواكب مسيرة الشعراء المعاصرين في التعبير عن العصر، وما فيه من مظاهر مستمدة من الحياة الاجتماعية، ولعل من أبرز قصائده في وطنه ليبيا قصيدة (وقفٌ عليها الحب) التي افتتح أبياتها الخمسة الأولى مؤكداً بأن حبه مقصور على وطنه دون ما سواه(٣٠):

وقفٌ عليها الحبُّ شَدَّت قيدَنا
أمْ أطلَقَتْ للكون فينا مَشاعِرا
وقفٌ عليها الحبُّ ساقَطَ نَخلُها
رُطَباً جَنياً أمْ حَشيفاً ضامِرا
وقفٌ عليها الحبُّ أمطَرَ غَيمُها
أمْ شَحَّ أو نَسيتْ مُحبَّاً صاكِرا
وقفٌ عليها الحبُّ كُرمَى عَينها
تَحلُو مُنازَلةُ الخُطُوبِ حَواسِرا
وقفٌ عليها الحبُّ تَنظمُ عقدَنا
رَكباً تَوحَّدَ خطوةً وخَواطِرا

إن تغني التليسي بوطنه، ورسمه لوحات الجمال التي يزين بها أسواره في مواضع متعددة من ديوانه، يؤكد مواكبة التليسي لروح العصر في توجيه شعره نحو أبناء وطنه؛ ليعزز فيهم انتماءهم، ويوثق روابط المحبة بين ليبيا وأبنائها، في قصيدته (قدر المواهب) (٣١):

فإذا تَعالَتْ صَرخَةٌ سرنا لها
سَيلاً يهدُّ مَعاقلاً وَكَتائبا
وإذا تَزاحَمت الخُطوبُ رَأيتَنا
كَفّاً مُوَحَّدةً وَسَيفاً ضَاربا
كَتَناسُقِ الأنغام في مَعزُوفة
مَالَتْ خُفُوتاً أو عُلُواً صَاخِبا

والتعبير عن روح العصر من خلال الأبيات السابقة لا يتمثل بموضوع الأبيات فقط، بل حتى في ألفاظها التي استقاها من معجم الموسيقى (تناسق الأنغام، والمعزوفة)، فتوظيف هذه الألفاظ العذبة يتناسب مع روح العصر الحديث الذي يعيشه الشاعر.

وإذا تأملنا موضوعات شعر التليسي الذي يدور كثيراً حول الحب والمرأة وجدناه يسير في ركب الاتجاه الرومانسي، وهو اتجاه ظهر في النقد الحديث، كما أن التزامه بوحدة الموضوع في كثير من قصائده يمثل تأثراً بمناهج النقد الحديثة التي تدعو إلى أن تكون القصيدة هيكلاً مترابطاً ينتظم في موضوع واحد، على خلاف ما كان في الأدب القديم من تعدد للموضوعات داخل القصيدة الواحدة، وما تميز به شعر هذا الاتجاه من ظهور الحزن والتشاؤم والغربة والحنين، ونزوعه إلى التأمل والتفكر، وظهور النزعة الإنسانية، كل ذلك يُعد من أمارات مواكبة التليسي لعصره ومتغيراته.

وهكذا يتضح أن التليسي الذي دعا إلى تحقيق الأصالة والمعاصرة في شعر

الجيل المعاصر قد التزم بذلك في شعره، وبرزت مظاهر الأصالة لديه، من استلهامه للتراث الأدبي والإسلامي، وتوظيفه للأحداث التاريخية توظيفاً يناسب المقام الواردة فيه، واعتماده في بناء قصائده على الأوزان الخليلية بناءً كلاسيكياً يتابع فيه القدماء.

إضافة إلى بروز مظاهر المعاصرة المتمثلة في استخدام الألفاظ العذبة الموحية، ونظم بعض قصائده على شعر التفعيلة، ومعالجة عدد من الموضوعات الشائعة عند شعراء العصر الحديث كالحب والمرأة، وبروز السمات الرومانسية في شعره؛ حيث نزع إلى الحزن والتشاؤم والغربة والحنين في موضوعاته، إلى غير ذلك من المظاهر التي تبين مدى تحقق الأصالة والمعاصرة في شعره.

الخاتمة

- يرى التليسي ضرورة تحقيق الأصالة والمعاصرة في الشعر؛ وذلك بربط الشعراء بالتراث الأدبي، ومحاولة تحقيق المعاصرة بالاعتماد على الذاتية ومواكبة العصر.
- إن العودة إلى التراث وقراءته قراءة جديدة تكشف عن مدى تحقق الأصالة والمعاصرة فيه، وتسهم في تنمية الذوق الأدبي، وتستميل الشباب نحو تراثهم، وتعيد الصلة بين الأجيال اللاحقة والسابقة.
- تكمن الأصالة والمعاصرة في شعر المعاصرين باستنادهم على التراث في طريقهم نحو التجديد، وهو ما يمكّنهم من تعزيز الصورة المشرقة للأدب العربي، والحفاظ على الشخصية العربية الأصيلة.
- تمثلت الأصالة في شعر التليسي من خلال استلهامه للتراث، وميله إلى النظم على النمط الكلاسيكي للقصيدة العربية، وتوظيف الألفاظ والصور المستقاة من الأدب العربي القديم.
- تحققت المعاصرة في شعر التليسي من خلال توظيفه للتراث بما يواكب العصر، ومجاراته للتجديد في شكل القصيدة بالنظم على شعر التفعيلة، وتأثره بالاتجاه الرومانسي وسماته الموضوعية والفنية.

الهوامش

١- ينظر: الشعر العربي المعاصر بين الأصالة والتجديد، أحمد هيكل، مجلة الأدباء العرب، العدد ٥، ١٩٧٢م، ٦٠

٢- ينظر: المصدر السابق، ٦٠

٣- ينظر: المصدر السابق، ٦٣

٤- ينظر: المصدر السابق، ٦٤

٥- ينظر: معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م، كامل الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ٣١٧/٢ .

٦- من روائع الشعر العربي، خليفة التليسي، الدار العربية للكتاب، ليبيا-تونس، ط٢، ١٩٨٥م، ٩/١

٧- ينظر: المصدر السابق، ١٤/١

٨- ينظر: المصدر السابق، ١١/١

٩- ينظر المصدر السابق، ١٢/١

١٠- ينظر: المصدر السابق، ١٢/١

١١- ينظر: قصيدة البيت الواحد، خليفة التليسي، دار الشروق، ط١، ١٩٩١م، ٥

١٢- ينظر: المصدر السابق، ٩

١٣- ينظر: المصدر السابق، ٣١

١٤- ديوان المتنبي، دار بيروت، ١٩٨٣م، ٣٥٨

١٥- المصدر السابق، ١٩٠

١٦- ينظر: من روائع الشعر العربي، خليفة التليسي، ١٣/١

١٧- ينظر: المصدر السابق، ١٤/١

١٨- ينظر: المصدر السابق، ١١/١

١٩- الشابي وجبران، خليفة التليسي، الدار العربية للكتاب، ط٤، ١٩٨٩م، ١٠١

٢٠- ينظر: المصدر السابق، ١٦٣

٢١- ينظر: المصدر السابق، ١٧٧-١٧٨

٢٢- ينظر: استلهام الشخصيات الإسلامية في الشعر العربي، د. محمد عبدالله منور، النادي الأدبي بالرياض، ١٨

٢٣- ديوان التليسي، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٩م، ٣٨

٢٤- المصدر السابق، ص١٢٤

٢٥- المصدر السابق، ص١١٧

٢٦- ديوان مجنون ليلى، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، مكتبة مصر، ص١٣١

٢٧- ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، شرح محمد العناني، مطبعة السعادة، مصر، ص١٤٥

٢٨- ينظر: استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، د. علي عشري زايد، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٣٨

٢٩- ديوان التليسي، ص٢٣١

٣٠- المصدر السابق، ص١٨

٣١- المصدر السابق، ص٣١